المحاضرة الرابعة

مناهج الاكتشاف

نجمع تحت هذا العنوان عددا من الطرق التي يعتبر الفلاسفة أنها الوسيلة إلى اكتشاف الحقيقة، أو معرفة المجهول، أو التعلم كما قال أرسطو. ويتحدث عنها أصحابها من حيث أنها أوصلتهم أو يمكن أن توصل من يسلكها إلى ما يتطلع إليه من معرفة بالكون أو تفسير لمظاهره ، وقد نحتاج إلى استخلاص هذه الطرق من كتاباتهم ، ولكنها ليست مرتبطة ، كما ظن البعض، بملكات عقلية عليا تخرج عن نطاق المعرفة الممارسة في مختلف العلوم، فهي مقيدة بشروط أو تخضع لقواعد، كما تتطلب تمرينا قبل الإقدام على استخدامها. وهي : الحدس - التمثيل المثال - الاستقراء - التحليل اللغوي - التقابل - المفارقات - الاحراج - التحليل الرياضي - القسمة.

وقد يتخذ الفيلسوف بعض هذه الطرق لغير البحث والاكتشاف، بأن يستغلها لغاية الاقناع بنظريته أو لتسهيل تبليغها إلى المستمع أو القارىء . فمناهج كالتمثيل والمثال والقسمة والتحليل اللغوي تصلح كذلك للاقناع مثلما يستفاد منها في التبليغ أو التعليم.

ولكنا آثرنا إدراجها هنا لما أولاه لها بعض الفلاسفة من دور بارز في عملية المعرفة، أو تقوم به فعلا في بعض الفلسفات.|

ونبدأ هذه المناهج بالحدس لأنه أبرزها وأشهرها من جهة، ولا يكون الغير الاكتشاف من جهة أخرى.

1- الحدس

ترتبط الفلسفة في كثير من الكتابات بالحدس الذي هو إدراك الأشياء في وجودها أو ماهيتها إدراكا مباشرة غير نظري، إنه، كما قال برجسون، نفوذ إلى الأشياء بدل الدوران حولها)

ولا يوجد أي سبب مقبول لأن نقصر في الميدان العقلي استعمال لفظ الحدس على الحالات التي يتم فيها إدراك الموضوع إدراكا واضحا تماما، فهناك في الواقع درجات في وضوح الرؤيا.

وقد يتخذ الحدس صورة أخرى ليست عقلية خالصة. وهذا ما وصفه فلاسفة، مثل شوبنهور وبرجسون على الخصوص، تحت اسم الحدس العقلي ، فهو مشروط بحالة وجدانية تكون أساسا للتعاطف .

إن الحدس عند أصحابه غاية ينبغي بلوغها، لا على سبيل تقدم الفكر في مراحل متتالية بفضل المنطق المعطى لكل إنسان، وإنما «بطفرة فجائية يرقي المرء بواسطتها إلى صعيد للرؤيا يختلف كل الاختلاف في مبادئه عن مستوى الادراك البحت .

يرى أفلاطون أن الفلسفة ضرب من الرؤية، أي رؤية الحقيقة ، فالعقل يستطيع حقا أن يستدل على وجود الله بالنظر في العالم، ولكن الله أو الخير المطلق هو فوق الحس والعقل. وهكذا يشير أفلاطون في عدد من المحاورات إلى طريق للمعرفة يفوق طريق العقل بمعناه المعتاد، ولا تبلغه النفس إلا بعد رياضة طويلة. فقد اعتبر أفلاطون، في الجمهورية مثلا، أنه لا يوجد منهاج أجمل من الجدل الذي هو من نعم الله على البشر، إلا أنه تراجع، في محاورة البرمنيدس، حيث لم يعد الجدل عنده أسمى العلوم، وإنما صار نوعا من الرياضة، فالمرء يحتاج وراء الجدل إلى الحدس). إن أعمق نظريات أفلاطون هي مما لا يتيسر التعبير عنه لفظية «من جراء الوهن الكامن في اللغة، ولا يستطيع الوقوف عليها إلا من تأمل برياضة العقل لاشراقة الحدس".

ويصف أرسطو العلم بأنه برهان أو استنباط، إلا أن كل استنباط يكون من شيء هو في نهاية الأمر غير مستنبط. ولا بد إذن من أن نقبل وجود معرفة أعلى من العلم ذاته ، وهي الحدس، ولا يوجد منفذ غير ذلك.

يحدثنا أرسطو، في الفصل الأخير من التحليلات الثانية، عن معرفة المبادىء ، إذ كيف تستطيع نفوسنا أن تصل إلى هذه المبادىء من دون أن تكون لنا ملكة أو قوة تسمح لنا باكتسابها؟ فما هي هذه القوة؟ يقول أرسطو أنه يجب أن تكون هذه القوة أعلى في الصحة من المبادىء ذاتها. ويدل ما قاله أرسطو هنا، بخلاف ما يراه البعض، على أن هذه القوة أعلى من مستوى العلم، وأكثر صحة كذلك من المبادىء التي يعرفنا بها.

وهذا ما عبر عنه أرسطو، في الأخلاق النيقوماخية، بقوله أن الحدس هو الذي يدرك المباديء، وإذا كانت الاستعدادات في العلم والفطنة والحكمة والعقل، وإذا كان ثلاثة فيها لا يمكن أن تقوم بأي دور في إدراك المباديء، (أقصد الفطنة والعلم والحكمة)، فيبقى أن العقل العياني هو الذي يدركها .

وإذا ما كان الأمر يتعلق، فيما يبدو، بالفرق بين التفكير النظري والتأمل الحدسي، فإن البعض لم يتردد في تصنيف أرسطو مع الفلاسفة الذين قابلوا بين العلم والإيمان .

واعتبر ديكارت أن أنماط المعرفة العادية ليست سوى أشكال دنيا من المعرفة فقد كان هناك في كل زمان رجال عظماء حاولوا أن يجدوا درجة خامسة للوصول إلى الحكمة، وهي أعلى وأضمن [...] وهي البحث عن العلل الأولى والمبادىء الحقيقية .

وللعقل عنده فعلان يوصلان إلى المعرفة، وهما الحدس من جهة، والاستنباط من جهة أخرى. ولكن، إذا كان الحدس يضمن للإنسان الوصول إلى الحقيقة، فلماذا وجب أن نرجع إلى فعل آخر، هو الاستنباط؟ والجواب هو أن الموضوعات التي تمثل أمام الإنسان مركبة معقدة، أي أن المسائل ليست من البساطة بحيث يمكن الاكتفاء فيها بالحدس» .

وظهر، في نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين، هذه الفكرة الجديدة، وهي أنه يوجد إلى جانب المعرفة العلمية مكان لمعرفة أخرى يمكن أن تكون مستقلة تماما، وقابلة للتقدم إلى غير نهاية . وقد اتبع برجسون وهصرل هذا الطريق الجديد، ولكن، بمنهاجين متمايزين جدة، فالأول يرتكز على أنه إذا ما نجحت المعرفة العقلية في العلم الذي هو أحد الاتجاهين الممكنين، فإن الاتجاه الثاني يبقى مفتوحة لنمط مختلف من المعرفة. وحاول هصرل أن يبرز، تحت المستوى المكاني - الزماني أو العالم، عالما من الماهيات التي يتم الوصول إليها عن طريق الوضع بين قوسين»، وذلك بالنزول تحت المستوى الأول

وينبغي التركيز هنا على أمرين اثنين :

أولا، وجود حالتين من الحدس، ذلك أن كل من أبدع أي نوع من أنواع الخلق المبتكر، قد أحس قليلا أو كثيرأ إما بالحالة التي تبتديء فيها الحقيقة أو الجمال بعد جهد طويل، أو بالحالة التي يخيل فيها لصاحبها أن قد تبدت له فيها الحقيقة أو الجمال. ولذا «فإن ما قد يبدو لصاحبه لمحة مباغتة من التجلي، ربما كانت مضللة ، ولا بد من سبرها ونحن في حالة الصحو العقلي»

ثانيا إن الحدس ليس منهاجأ، وإنما هو، كما قال ديكارت، فعل من أفعال العقل. ودور المنهاج أن يبين لنا كيف نستخدم أفعال العقل لاكتشاف الحقيقة، ولكي لا نقع في الخطأ عند استخدامنا لهذه الأفعال . وقد وضع ديكارت كتاب (القواعد لقيادة العقل) من أجل قيادة أفعال العقل، ومنها الحدس، إلى أن تصل إلى معرفة كل الأشياء .

يقتضي الحدس إذن لكي يقوم بدوره في التفلسف شيئين اثنين :

أ/ إعدادا خاصا في البداية، فقد طالب أفلاطون الفلاسفة بخمس سنوات من الدراسات الجدلية ، وبالتالي بجهود شاقة قبل الوصول إلى قمة الحدس العقلي الذي يسمح برؤية المعاني .

ويرى ديكارت أن اليقين قائم في الحدس لبساطة موضوعه، ولصدوره عن عقل صاف منتبه، ولكنه ينصح في منهاجه بالتهيؤ للحدس وممارسته على خير وجه. «أما التهيؤ فيتم بعدة شروط، منها تجنب السرعة والتهور، وتعويد النفس الصبر والأناة في الأمور العقلية على نحو ما يتم في الأمور الخلقية، وتحريرها من الأحكام السابقة التي تأصلت فيها منذ عهد بعيد دون إمعان أو تمحيص، ثم تصفيتها من أحكام الحس والخيال فيما أمكن معرفته بالعقل وحده. أما ممارسة البصيرة على خير وجه فتتم بفضل الانتباه ومضاعفته حتى يصبح في النفس عادة وطبيعة ثانية ، وتتم أيضا بإثارة الولع في النفس بالبسائط، ودعوتها إلى عدم إهمال الأمور الميسورة التي لا يمكن معرفتها إلا بالبصيرة».

ويظن البعض أن الحدس البرجسوني موهبة ، مع أنه كما قال باشلار)، يتطلب تمرينة وقلباً لجميع العادات الفكرية التي اكتسبناها خلال عملنا في العالم الخارجي

ب/ عرض الحدس، بعد تحققه، على محك النظر وتمحيصه، «إن تحليل الحدس يؤدي إلى إبراز مكونيه غير المتميزين، وهما التجربة والاستنتاج الاستنباطي »

ولا يخرج عن هذا الاعتبار ما كان من الفلسفات قائمة على أساس العاطفة أو الحدس اللاعقلي، فنظرياتها لا تعد فلسفية إلا لأنها تثبت حقوق الملكات غير العقلية في الوصول إلى المعرفة عن طريق استعمال العقل وإخضاع عناصر تلك الملكات لتنظيم عقلي . يجب على كل نظرية لا عقلية تريد أن تكون فلسفية أن تتبني على براهين، وأن تدل على اللاعقلانية بواسطة العقل والاستدلال

ولا يكفي إذن أن نقول عن الحدس، كما صنع بيرلمان، أنه لا يميز الفيلسوف عن غير الفيلسوف، فقد يكون حدس أحمق . بل يجب أن نبين كيف يمكننا تمييز حدس الفيلسوف عن غيره .

إن مثل أنماط الحدس كمثل أشكال الاستدلال في أنها لا بد من أن تسيطر عليها إذا ما أردنا أن تكون مفيدة .

وإذا ما اعتبر هصرل أن الفينومينولوجيا فلسفة حدس، وهو نظرة يمكن أن يجربها كل أحد. إلا أنه يوجد مع ذلك منهاج يمكن أن يقودنا إليه، وهو تعليق الحكم أو «الوضع بين قوسين»، أي إبعاد كل ما يمنع حسن الرؤيا. ويريد منا هصرل إذن أن نقوم بتطهير عسير ويكلف النفس كثير .

بل ان بعض الفلاسفة لا يستنجد بالحدس إلاه في نهاية المطاف بعد أن يكل العقل في طرقه الاستدلالية، فلا يلجا أفلاطون إلى الحدس إلا بعد أن يسلك سبيل الجدل. ويقودنا أفلوطين بواسطة استدلالات محكمة إلى حد النقطة التي يفقد فيها الاستدلال قوته، ولا يبقى لنا سوى طريق الحدس، ويقول: «إن من يريد أن يتجاوز العقل من دون أن يمر عن طريقه، يتعرض للسقوط إلى أسفل سافلين» .

إننا، إذا أغفلنا ذلك، «سنغالي في الاستنجاد بالحدس الداخلي عند ما لا نستطيع أن ننتج أي أساس آخر للمعرفة .

وتحدث ماجد فخري عما عناه ابن سينا في تعبيره الفلسفي، وذلك على غرار أفلاطون، وهي معاناة تنطوي على أكثر من مشكلة الاصطلاح المجازي والأسطوري، هي التعبير الظاهر عن عدم الرضا عن أشكال التدليل الفلسفي النظري، والرغبة الملحة في تخطيه أو تجاوزه باستحداث مصطلح جديد أكثر تجاوبا مع رؤى النفس».

ويتبين من هنا أن الحدس الفلسفي غير الالهام أو الاشراق الصوفي، فهذه الطريقة، كما قال ابن رشد، «وإن سلمنا بوجودها فإنها ليست عامة للناس، بما هم ناس»، وليست من أسباب المعرفة بصحة الشيء. إن النظر، فيما يرى ابن طفيل، أقصى ما يفضي بنا إلى عتبة التجربة الصوفية

واعتبر برجسون أيضا أن الحدس الصوفي من ميدان الغيب، ولا نستطيع أن نقيم عليه الحقائق العقلية الخالصة .

ومع ذلك فإن الميتافيزيقا لا تفتأ تصبو إلى التجربة الصوفية، وإن كانت، كما قال ماريتان، لا تقتضي هذه التجربة من أجل أن يتم تكونها، فلا يمكن أن نقول عن الحدس الصوفي أنه من المستوى الطبيعي، أما إذا قلنا أنه مما فوق الطبيعة، فإنه يكون من الخلط إدراجه في الفلسفة .

هذا، وقد لا يستطيع المرء حدس الأشياء مباشرة، فيلجا من أجل إدراكها إلى وسائل غير مباشرة. وهنا أيضاً يسعفه الحدس أو نوع من الحدس، فيحدس التماثلات بين الأشياء، بين مجهولها ومعلومها، ويعرف الأول من خلال الثاني الذي يتخذه عندئذ نموذجا أو مثالا كما سنرى.

2. التمثيل

المصادر والمراجع:

- **محمد ثابت الفندي: محاضرات في مناهج البحث العلمي، دار المعرفة الجامعية،1988.**
- **عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي. وكالة المطبوعات الكويت.**
- **محمود فهمي زيدان: الاستقراء والمنهج العلمي، بيروت،1968.**
- **فؤاد زكريا: التفكير العلمي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 03. 1978.**
- **كارل بوبر: منطق الكشف العلمي، ترجمة: ماهر عبد القادر محمد، دار النهضة العربية، بيروت،1986.**
- **محمد عابد الجابري: المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي، دار الطليعة، بيروت،1982.**
- **أرسطو: منطق أرسطو، وكالة المطبوعات الكويتية، دار القلم، ثلاثة أجزاء، تحقيق عبد الرحمن بدوي، 1980م.**
- **أرسطو: الخطابة: مكتبة النهضة العربية المصرية، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، 1959م**
- **أفلاطون: محاورة فيدون، ترجمة: علي سامي النشار، وعباس الشربيني، دار المعارف القاهرة، 1974م.**
- **ابن خلدون: المقدمة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي.**
- **طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1987م**
- **أبو حامد الغزالي: تهافت الفلسفة، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.**
- **مارتن هيدجر: نداء الحقيقة، ترجمة: عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة، للطباعة والنشر.**

- Bergson: la pensée et le mouvement ، p u f ، paris ،
- Deleuze: Nietzsche et la philosophie ، p u f ، paris ،
- Descartes: les Méditations métaphysiques ، p u f ، paris ،
- Duhem: La théorie physique: son objet-sa structure ، vrin ، paris ، 1981 ،
- Jaspers: Introduction a la méthode philosophique ، payot ، paris ، 1968 ،
- Russel: La méthode Scientifique ، payot ، paris ، 1971 ،